قصة قصيرة

قبل الأجل

علي محمد عودة

نندفع في شرايين الأرض، نغوص في أعماقها. فأخترق الوطن الحلم، وأتجول في الأرض الواقع. أتحسسه، أهتف بعشق الأشجار، الجبال، الماء، الصخور والسماء (كل شيء لنا، لنا..). تفجؤني الوجوه الغريبة والحروف القبيحة، ينتشلني الزمن، يوقظني، يهزني، أبحث عن حروف عربية، أكتشفها على حقائب السفر، وفي أفواه متعبة مكلومة، واكتشف معها هزيمتي وغربتي..

أرنو ببصري إلى رؤوس الأشجار، وأتقوقع داخل نفسي، فيأتيني ذلك الصوت الحزين طاغياً على كل شيء. يملأ كياني، أشعر به منتشراً في الوديان والجبال، يلامس رؤوس الأشجار، ويملأ الأفق، ثم يعود إلى داخلي ويجذبني إليه بشدة (أريد رؤيتك ورؤية أطفالك قبل... قبل الأجل).. أتخيّل أمي بوجهها الشاحب النحيل، أناجيها ملبياً، اسلم نفسي إلى صوتها الضعيف، أشعر به آتياً من عالم غريب، لعله الفردوس، يتوهج الصوت في داخلي، يدعوني، يتوسل إليّ، ثم يخفت، يخفت، أتابعه في خفوته وحشرجته الحزينة، وأتابع النظر إلى رؤوس الأشجار.

ينفلت طفلي من بين يديّ، أدرك شعوره ببرودي تجاه مداعباته المتكررة، يندس في حضن جده الجالس في المقعد الأمامي، فتبادر يد العجوز المرتعشة إلى مسح شعره ومداعبة أذنه الصغيرة في حنان.

اليد نفسها التي لوّحت لي مودعة، عندما أقلتني حافلة اللعنة من وسط المدينة، منذ خمسة عشر عاماً.

كان يلوّح بيده، ولم تكن مرتعشة يومها، كان يهتف باسمي، يوصيني بأشياء كثيرة، يمسح دمعة عنيدة، يهرول، يصيح، يلوّح، ويهرول وراء الحافلة كطفل، والحافلة اللعينة تقسو عليه، تخذله، وتتحرك بسرعة، تخذله ثم تتركه ليختفي في زحمة المودعين المهرولين.

وعندما احتضنني في المطار منذ أسبوع، اكتشفت أن يده مرتعشة، وخمّنت أنه لا يستطيع الهرولة وراء حافلة أخرى تقلني.. سألته أثناء عودتنا من المطار عنها.. (- إنها مريضة، عملنا لكم تصاريح، قالت لي لا ترجع بدونهم، وأرسلتْ لكم شريطاً مسجلاً) رفضت الفكرة، خشيت من عواقبها، وكذلك ابن عمي (مستحيل، هذه مغامرة، هذا فخ وليس تصريحاً، لن يتركوك، تعقّل، لقد اعتقلوا زياد عبد الله، وعصام سلمان وأحمد خلف، كلهم كانت لديهم تصاريح أيضاً، إنه فخ).. لكن ذلك الصوت الحزين بحشرجته الملتاعة، أذاب رفضي، وأفشل كل محاولات ابن عمي لمنعي من السفر - وها أنا اصطحب زوجتي وأطفالي، يرافقنا ذلك العجوز بيده المرتعشة ويجذبنا ذلك الصوت إليه، ولا نملك إلاّ الاتجاه نحوه بقوة..

* ** *

(لولا هذه اللعينة لكنّا في بيتنا منذ زمن!) قالها الرجل الذي احتل المقعد الخلفي مع زوجته، وعندما ضرب على فخذه الأيسر، أدركت أن له رجلاً خشبية..

- أهي التي عاقتك؟..

سأل والدي، محرضاً ذا الرجل الخشبية على الحديث، وراغباً في قطع الصمت، والتخفيف من حرارة الغور المرتفعة..

- ها.. ها، تصوروا! هذه الرجل الخشبية (وضرب على فخذه مرة أخرى) تمكث ثلاث ساعات تحت الفحص، يا إلهي، من التاسعة حتى الثانية عشرة، أليس هذا عجيباً؟!.

وأقحمت نفسي متسائلاً: (أهي أول مرة؟!).

- أول مرة! كيف يا أستاذ؟ لعلها العاشرة! أنا آتي إلى هنا سنوياً، بل أتيت في السنة الماضية مرتين، أتعرف؟ لو أبقوني بسببها يومين، لن أمتنع عن القدوم!..

ثم انطلق الرجل إلى الحديث عن أشياء كثيرة، التفتيش، رجله الخشبية، الازدحام، درجة الحرارة المرتفعة.. وكان سعيداً رغم معاناته الواضحة.. رددت كلماته الحاسمة داخل نفسي (لو أبقوني بسببها يومين، لن أمتنع عن القدوم!).. ووجدت فخذه الخشبية تعيدني إلى تلك البوابة اللعينة التي تركناها منذ ساعتين..

(مزيج غريب، مرّ) شعور بالعجز، المهانة، الضياع، تمتزج

كلها مع لعنتيْ الغربة والهزيمة، لتصنع مزيجاً ساماً، وها هو يقطر في أعماقي عند كل حركة لأشياء ثلاثة أمامي.. هذا العلم بنجمته السداسية المقيتة، ذلك الجندي ذو اللحمية الكثيفة بغطرسته الواضحة، ورشاشه الملعون، وتلك الأخرى، تلك المجندة، بشعرها الزنجي وسروالها الممزّق، وقميصها المفتوح عن صدر كريه.. ثلاثة، بحركتها يقطر في أعماقي مزيج بطيء، لكنه سريع الفتك..

البوابة مقفلة، المجندة تتفحص تصاريحنا وأوراقنا الثبوتية، تعطي إشارة إلى زميلها الملتحي، يتصل بالهاتف، ثم يتحرك لفتح البوابة، زارعاً ابتسامة مقيتة على شفتيه، ورافعاً يده بإشارة تعني الدخول إلى نقطة التفتيش. وكانت تلك البداية فقط..

الاكتظاظ، رائحة العرق، صراخ الأطفال، الرطوبة، الصيف، الوجوه المجهدة والتعبيرات الكالحة الغائمة، المجندات، الجنود، رشاشاتهم، الحقائب، الأوراق الثبوتية والتصاريح، تختلط الأشياء أمامي وفي أعماقي، وأبدأ في التعامل مع الأشياء بآلية بحتة، لأجد نفسي بعد وقت في طابور طويل.. (هذه أصعب المراحل، التفتيش الذاتي!) همس أحدهم، عندما أشار لي بالتحرك وأخذ دوري في الطابور. وبعد ساعة كنت مع طفلي في حضرة المسخ العظيم..

- اخلع كل شيء!.

قالها المسخ، ثم أشار إلى طفلي مضيفاً (وأنت كذلك)..

وعندما بدأت الخلع رحت أمتع نظري في شخصيته العجيبة..

كانت قامته ويداه قصيرتين، عيناه خاليتان من الرموش، أسنانه كبيرة تعلوها شفة مثقوبة، أما وجهه، فلم تغادره آثار الجدري، وتزين ذلك كله، صلعة كبيرة...

- تفضل أنا جاهز!.

قلت ذلك، وحاولت زرع ابتسامة على شفتي، فأبت..

- لا، كله، حتى هذا..!

وأشار إلى السروال الذي بقي وحيداً على جسمي، وكذلك فعل مع طفلي.. رفع طفلي يده في حركة تشبه الاستنكار، نظرت إلى المسخ بإمعان أكثر، ثم همست لطفلي:

- لا بأس، لنخلع هذا أيضاً..

وكانت تلك أول مرة أتعرى فيها أمام ولدي، لكن ذلك لم يشغلني كثيراً، إذ كانت ثمة صورة سخيفة، وتساؤل عنيد يقرع ذاكرتي..

إنها صورة ذلك الحفل الكبير، الموقرون كلهم، المدعوون منظمو الحفل، الفرقة الموسيقية، حتى القائمون على خدمة هؤلاء، كلهم، يا إلهي! ماذا لو.. أحذيتهم، ملابسهم، كل ملابسهم، مثل طفلي هذا تماماً، ألاّ يكون ذلك رائعاً؟! نظرت إلى طفلي العاري، طردت الصورة السخيفة من رأسي ثم رضخت لأوامر المسخ ورفعت ذراعيّ..

دار جهاز التفتيش بطنينه حول جسمي العاري، ثم نزل إلى مؤخرتي مررته اليد القصيرة بين فخذيّ، شعرت به يلامس خصيتيّ، ارتفعت به اليد القصيرة إلى بطني، ثم صدري، هبطت مرة أخرى بين فخذي، فمؤخرتي، ثم أُمرتُ بارتداء ملابسي.. وعندما خرجت بطفلي، تذكرت زوجتي، وأدركت أن جهازاً آخر يدور الآن حول بطنها وصدرها من حجرة أخرى..).

* * *

نغوص في شرايين الأرض أكثر، نقترب من قلبها المكلوم، تختفي الحروف العربية، حتى عن حقائب السفر، أنظر إلى الأشجار والماء، الصخور والجبال، السماء، ولا أهتف. ابتلع أحزاني ودخان لفافتي، أنظر إلى زوجتي، أجدها مستسلمة للنوم، أرمق يد والدي المرتعشة، وعندما جففت عرقي كانت السيارة تحول اتجاهها إلى الشمال، وتقترب من الحدود القديمة. نقطعها ونصل إلى بلدة صغيرة، تتوقف السيارة، يهبط ذو الرجل الخشبية وزوجته، يودعنا مقهقهاً، نبتسم له، وتتحرك السيارة، لنصل إلى بلدتنا بعد نصف ساعة. ضيقة شوارع قريتنا، كما هي القرويات يتبضعن الخضار والفاكهة ويجادلن الباعة في عناد، والعجّز، كما عهدتهم، يجلسون على قارعة الطريق، ويمدون أرجلهم في الشوارع الضيقة (يضمونها عند اقتراب السيارات).. الأطفال يلاحقون سيارتنا، يركبون على مؤخرتها، السائق يزفر، يلعن القرى وأهلها دون حياء منا، يضرب على بوق سيارته بغيظ، وعندما تتوقف العجلات، تندفع نحونا أجسام كثيرة لتعانقنا.. وجوه عرفتها، ووجوه لم أعرفها (أنا ابن عمك، أنا ابن اختك، أنا ابن خالك، أنا..) ولم تكن أمي بينهم.. أفلت منهم بصعوبة، واندفعت داخل بيتنا، بحثت عنها بلهفة، لم أجدها! وعند المطبخ واجهتني شقيقتي بعينين حمراوين دامعتين.. تسمّرت في مكاني، وهمست (أماتت؟!).. فانسحبت شقيقتي باكية..

أسندت ظهري للحائط، رأيت والدي يهوي على الأرض، وطفلي يرتمي عليه باكياً، لوّحت بيدي في الهواء، ضربت رأسي بعنف، ثم انفجرت باكياً لخمسة عشر عاماً كاملة..

وكانت ثمة كلمتان تخترقان كل شيء وتترسبان في أعماقي (قبل الأجل، ق، ب، ل، أ، ل، أ، ج، ل)..

طرابلس (الجماهيرية)